

هل كنّا يوماً نحلم بالعبث؟



هواجس في اليوم العالميّ لحقوق الإنسان

لا أحدٌ يشكُّ في أنّ العالم يعاني من أزماتٍ حقيقيةٍ فكريّةٍ وسياسيّةٍ واقتصاديّةٍ وإنسانيّةٍ، حتّى لكأنّه قد دخل نفقا مظلما مليئا بالنواهش والقوارض التي تُهَشِّمُ العقل والروح وتُنزِحِلُ الأجساد، فينبت على أطرافها الوجد الوجوديّ القاسي لمن أراد أن يتدبّر أمر هذا الكون السّاعي بجنون نحو الجنون.

إنّنا نعيش في "هيكليّة التفاهة" بكلّ ما في هذا المصطلح من واقعيّة فكريّة، وليس لغويّة مجازيّة فقط، تفاهة في الأهداف، وتفاهة في الممارسة، وتفاهة في الاندماج في هذه الهيكليّة العبثيّة، لا نحسن فهم الذات، ولا نسمع أصواتنا الداخليّة، قمعنا أنفسنا بأنفسنا، وقرّمنا العالم فينا، فلم نعد نرى إلا ما يراه الآخرون المتحكمون بنا.

لقد أصبحنا مستعبدين، الوظيفة تستعبدنا، والواجبات الاجتماعيّة تأسرنا، وتفاصيل الحياة اليوميّة

تكبّلنا، لا نعيش أفكارنا كما نحبّ أن نعيش، وتخلّيّنا عن أحلامنا، ننظر بعين الرّيبة إلى كلّ فعل نفعله، وإلى كلّ قول نهمّ أن نقوله، حاسبنا أنفسنا فتلاشت كينوناتنا الضّعيفة الهزيلة لنغدو أشباحا تجرّ أذيال الهزيمة، وتسحب خلفها أرتالاّ من أثقال الواقع فنصطدم بالحواجر الخارجيّة والدّاخلية، فارتطمنا، وكُيّت جوهنا في الوحل، ونقول إنّنا نمارس حرّيّتنا!

أين هي هذه الحرّيّة أيّها العالمُ الحرّ؟ إنّها محض خيال غير منصوّر إلاّ في أحلامٍ، هي الأخرى غدت بعيدة المنال، الرّجال قبل النّساء، والأقوياء قبل الضّعفاء، والكبار قبل الصّغار، والأثرياء قبل الفقراء، والحكّام قبل المحكومين، كلنا مكبّلون بوهم أنّنا أحرار في زمن تخيّلناه أنّّه زمن الحرّيّة والانعقاد من السّجون والرّقّ، فإذا بنا مسجونون في دهاليز سجون، ليس لها فضاء، وليس لعتمتها انتهاء، فكم من سجينٍ فكّرٍ ورأي في سجون الطّغاة، وكم من شاعرٍ وأديبٍ حوكم وأقصى وعوقب بسبب إبداع تخلّق بين يديه، وكم من سياسيٍّ اغتيل ونُهِش لحمه وتفتكّت عظامه بسبب رؤاه السّياسيّة المغايرة للإله الوثنيّ الحاكم، والكلّ يسمع ويشاهد، وينصت، ويتابع الفوضى كلّها دون أيّ اعتراض وامتنعاض، وكأنّّه يتابع أحداث فلمٍ تشدّه روعة ما فيه من إخراج الخلل على أحسن صورة!

هل كان على البشرية أن تصبح هكذا خواء وعدماً، وتعيش أقصى وأقصى درجات الانحطاط والتّشوّع والعبث؟ ألم يكن بمقدور مفكريها أن ينقذوها ممّا هي فيه، أم أنّّه لا أحد يستطيع أيّ فعل، وقد فقد كلّ حيّ في هذا العالم صوته ويديه، وتلطّخت صورته، وفقد بصره وبصيرته؟ بل كيف صار الجميع ساعيا إلى حتفه بخطواته الذّكلى، ليكون عيشه في هذا العالم ورحيله عنه سواء بسواء؟

كم هي موجعة هذه الأسئلة؛ لأننا نعرف الإجابة، ولكننا لم نعد بشرا قادرين على أن نكون كما ينبغي أن نكون، فقد اكتفينا بصنع التّمثيل الجريّة، ونسينا أن ننفخ فيها الرّوح لتصبح خلقاً سَوِيّاً!